

ثقافة مجتمع وتصوراته الاجتماعية

د. ربيعة لشطر

جامعة باجي مختار - عنابة، lachtarkarima@gmail.com

تاريخ القبول: 2019/10/10

تاريخ المراجعة: 2019/04/25

تاريخ الإيداع: 2019/04/25

ملخص

يسعى هذا المقال إلى مقارنة مفاهيمية لموضوع الثقافة والتصورات الاجتماعية على اعتبار أنهما من المفاهيم التأسيسية في العلوم الاجتماعية، وكذا محاولة التعمق في مسألة العلاقة بينهما، بالإضافة إلى الوقوف عند أهم التقاطعات والتداخلات النظرية والميدانية لهذين المفهومين بهدف تفسير وفهم الواقع المعيش للفرد في إطار حياته الاجتماعية وممارساته الثقافية.

الكلمات المفتاحية: ثقافة، تصورات اجتماعية، فرد، مجتمع، آراء واتجاهات، عادات وتقاليد.

*Culture d'une société et ses représentations sociales***Résumé**

Cet article vise à adopter une approche conceptuelle du sujet de la culture et des présentations sociales en tant que concepts constitutifs des sciences sociales, tente d'approfondir les relations entre elles, et aborde les croisements et les interactions théoriques et pratiques les plus importantes de ces deux concepts afin d'interpréter et de comprendre la réalité vivante de l'individu dans le cadre de sa vie sociale et de ses pratiques culturelles.

Mots-clés: Culture, présentations sociales, individu, société, opinions et tendances, coutumes et traditions.

*The Culture of Society and its Social Perceptions***Abstract**

This article aims to make a concept approach to use subjects of culture and social perceptions as sociology's foundational concepts, to further explore the correlation between these two concepts and to identify their main theoretical and filed crossovers in order to interpret and understand the living reality of the individual within the context of his social life and his cultural practices.

Keywords: Culture, social perceptions, individual, society, views and trends, customs and traditions.

تمثل التصورات الاجتماعية جزءاً هاماً من التفكير الاجتماعي، وتؤثر بشكل مباشر أو غير مباشر في تفسير الفرد وفهمه لواقعه، أي أنها تمثل الحس المشترك، كما أنها تسمح بإعادة بناء واقع اجتماعي لجماعة وفق التوجهات والآراء والأيدولوجيات السائدة، وتساهم في فهم وتنظيم المحيط، والتحكم فيه، والتواصل من خلاله فهي بذلك أنظمة معرفية- اجتماعية، تفسيرية لواقع يضم مجموعة من القيم المعايير، والأفكار، والمعتقدات، والطقوس والشعائر، والأساطير والرموز...، والتي تمثل في جانب منها ثقافة مجتمع.

وعليه فإن التصورات الاجتماعية عبارة عن أنظمة لترجمة ثقافة المجتمع، فالفرد هو حامل الأفكار والقيم والنماذج...، التي أخذها من جماعة الانتماء، والتصورات الاجتماعية تتشكل نتيجة تواجده في وضعية تفاعلية مع المثيرات الاجتماعية، فالرؤية الوظيفية للواقع من خلال التصورات الاجتماعية، كما قال أبريك Abrik تعطي معنى لسلوك الفرد والجماعة، وتساهم في تفهمهم، وتحدد مكانتهم، من خلال ممارستهم، واستجاباتهم لمجموعة من العناصر التي تدخل في بناء ثقافتهم، والتي سنوضحها في هذا المقال.

أولاً- ثقافة المجتمع

جرت العادة على اعتبار أن أشهر تعريف للثقافة هو لـ تايلور Tylor ، وذلك حينما وصفها على أنها: "ذلك الكل المركب الذي يشتمل على المعرفة والعقائد والفن والأخلاق والقانون والعرف وكل القدرات والعادات الأخرى التي يكتسبها الإنسان باعتباره عضواً في المجتمع"⁽¹⁾.

فحسب تايلور تتميز الثقافة ببعدها الجماعي، وهي مكتسبة وليست وراثية بيولوجية، والمشكلة التي كان يحاول حلها عبر تفسير واحد هو المصالحة بين تطور الثقافة وبين عالميتها، إذ في كتابه **الثقافة البدائية 1871** يتساءل عن أصول الثقافة في كل أنماط المجتمعات في مختلف أوجهها المادية والرمزية وحتى الجسدية، والفكرة التي كان يدافع عنها بشدة هي البرهنة على وجود الاستمرارية والتواصل بين الثقافات البدائية والثقافات المتحضرة، يعتقد أنه ليس هناك فارق بين الاثنين من حيث الأصل والمبدأ وإنما الفارق يكمن في الجانب الحضاري.

تجدر الإشارة إلى أن السمة المشتركة لمعظم تعريفات الثقافة هو أنها تكتسب عن طريق التعلم، وأن هذا التعلم يرتبط بجماعات أو مجتمعات بشرية معينة في هذا الصدد يقول **كلايد كلاكهون (Kluckhohn)**:

"نقصد بالثقافة كل مخططات الحياة التي تكونت على مدى التاريخ بما في ذلك المخططات الضمنية والصريحة والعقلية واللاعقلية، وهي توجد في أي وقت كموجهات لسلوك الناس عند الحاجة".

كما يضيف في موضع آخر: "أن ثقافة مجتمع من المجتمعات هي نسق تاريخي المنشأ يضم مخططات الحياة الصريحة والضمنية، يشترك فيه جميع أفراد الجماعة أو أفراد قطاع خاص معين منها"⁽²⁾.

وعليه سنكتفي في هذا المقام بمقاربة موضوع الثقافة عند كل من **رالف لنتون ومالك بن نبي**.

1- مقارنة رالف لنتون للثقافة: الفرد..الثقافة..المجتمع: يفضل لنتون عند دراسته موضوع الثقافة والشخصية تعريف الثقافة بأنها: "الصيغة العامة للسلوك المتعلم ونتائج هذا السلوك هي العناصر التي تؤلف هذه الصيغة، كما أنها مشتركة وتنتقل بواسطة أعضاء المجتمع الخاص بها"⁽³⁾.

يتضمن هذا التعريف ثلاثة جوانب:

الجانب الأول: الصيغة العامة، تعني أن السلوك ونتائجه المختلفة تنتظم في نمط كلي، أما السلوك المتعلم فهو الذي يحدد النشاطات التي تصنف كجزء من الصيغة العامة للثقافة، ويتعدى محتوى هذه الصيغة بعملية التعليم.

فالسلك الغريزي المرتبط بالحاجات الأساسية هي دوافع أساسية للسلك لدى الفرد، ولا تعتبر جزءا من الثقافة رغم تأثيرها الواضح على الثقافة، ترتبط العمليات الفيزيولوجية لدى الإنسان بالأفعال السلوكية المصاحبة وتعدل هذه الأفعال عن طريق الخبرة التي يكتسبها من المجتمع.

أما عن مفهوم السلك في صورته المتعددة فهو يتضمن كل أفعال ونشاطات الفرد الجسمانية والسيكولوجية والعقلية، وتتميز نتائج السلك بخاصتين الأولى مادية والثانية مرتبطة بالعمليات السيكولوجية، ويندرج تحتها ما يعرف بأنساق القيم والمعرفة.

الجانب الثاني: يتناول فيه **لنتون** تحليل مفهوم المشاركة والانتقال، فالمشاركة لا تؤخذ بمعنى النمط السلوكي الخاص، وإنما هي اتجاه أو جزء من المعرفة يشيع استعماله عند أكثر من اثنين من أعضاء المجتمع، أما السلك الجزئي الخاص بالفرد في مجتمع ما لا يعتبر جزءا من ثقافة هذا المجتمع، وتؤثر عملية التعليم والتقليد في انتقال عناصر السلك بين الأفراد وتشاركها.

وأخيرا **الجانب الثالث**، ويوضح فيه أن مفهوم الثقافة يتضمن مستويين:

المستوى الأول: يعرف بالثقافة الظاهرة، ويشمل الثقافة المادية والسلك الظاهري الحركي.

المستوى الثاني: يعرف بالثقافة الباطنة أو غير الظاهرة ويتضمن الثقافة السيكولوجية والتي تشمل على الأفكار والمشاعر، والمعارف والاتجاهات والقيم وكل الظواهر التي لا يمكن ملاحظتها مباشرة ولكن يستدل عليها من الحديث والنقاش، أو من خلال تحليل المنتجات المادية.

فهو يرى أن كل فرد يستطيع أن يعبر عن جزء من الثقافة، بينما لا يمكنه أن يعبر عن الثقافة كلها على الإطلاق، كما يستحيل على الفرد أن يلم بجميع الأنماط الثقافية للمجتمع الذي يعيش فيه، ورغم ذلك فإن مجموع الأفراد الذين ينتظمون في المجتمع، يمكنهم وهم مجتمعون إدراك وممارسة الثقافة كلها. وتتصف الثقافة حسبها بالمرونة مما يجعلها قادرة على الاستمرار في البقاء، طالما يتواجد أفراد المجتمع، ذلك لأن الثقافة هي النتاج الإنساني بشقيها الظاهر والباطن.

ويضيف أيضا أن الثقافة ترتبط دائما بالمجتمع ارتباط وثيقا، ويظهر هذا الارتباط في كثير من المواقف الاجتماعية ولهذا تقتضي كل ثقافة وجود جماعة، إذ أن ثقافة أي مجتمع ما هي إلا طريقة حياة أفراد، التي تتمثل في مجموعة من الأفكار والعادات التي يكتسبونها ويشاركون فيها وتنتقل من جيل إلى جيل آخر، يقول **لنتون**: "الواقع أن معظم حياة الإنسان تدور حول علاقات وتفاعلات المجتمع والثقافة والفرد، فالمجتمع والثقافة شيان متلازمان إلا أنهما ظاهرتان من نوعين مختلفين، يتصلان ببعضهما عن طريق الأفراد الذين يكونون المجتمع ويفصح سلوكهم عن نوع ثقافتهم"⁽⁴⁾.

يتناول **لنتون** تحليل بناء الشخصية وذلك من خلال البحث عن معايير الشخصية التي ترتبط بالجماعات التي يتضمنها المجتمع، فهو لا يركز على معايير الشخصية المنفردة وإنما يبحث في عناصر الشخصية التي يشارك فيها كل أعضاء المجتمع، وهذه العناصر تتنوع وتتخصص تبعا لمواقف محددة يقرها المجتمع، فقد حدد في مقدمته لكتاب **أبراهام كاردينر Kardiner "الحدود السيكولوجية للمجتمع"** أن أساس الشخصية يتضمن عناصر مختلفة تستند إلى الفرضيات التالية:

- تؤثر الخبرات الفردية المبكرة تأثيرا قويا في الشخصية.
- ينتج عن الخبرات المتشابهة صيغ شخصية متشابهة لدى الأفراد الذين يخضعون لهذه الخبرات.

- تتشابه الأنماط الثقافية التي يستخدمها أعضاء المجتمع في التنشئة الاجتماعية، رغم عدم وجود أي تماثل في الأسر المكونة للمجتمع.

ويترتب على صدق هذه الفرضيات النتائج التالية:

- يكون الطابع الخاص الأساسي لشخصية أي مجتمع هي الصيغة الشخصية التي يشترك فيها معظم أعضاء المجتمع، نتيجة للخبرات المبكرة التي اكتسبها، وهذه الصيغة لا تناظر الشخصية الكلية للفرد، ولكن الصيغة الشخصية إنما هي انعكاسات للصيغة الثقافية العامة للبناء الثقافي للمجتمع. وأيضا تكون قدرات الفرد العقلية، وإدراكاته، وأفكاره، وعاداته، وانفعالاته، واستجاباته الصيغة الفردية، وترتبط هذه الصيغة الفردية بثقافة المجتمع ككل (5).

- يوضح "لنتون" أن لكل شخصية وجهين أحدهما المحتوى، ويتكون من تآلف عناصر الشخصية، والثاني الوجه التنظيمي، ويمثل علاقة هذه العناصر بعضها مع بعض وتنسيقها مع الصيغة الكلية للشخصية.

- إذا تسمح نظريته عن الشخصية النمطية بتفسير الأنماط الفردية للعلاقة مع الثقافة التي لا يعرف أي فرد كل محتواها فهو يرى أن: "الشخصيات النمطية المعتمدة في مجتمع ما تتراكم على الشخصية الأساس وتتكامل معها بعمق" (6).

فهو يؤكد أن ثقافة الإنسان هي ناتج مجمل سلوك، يتكون من ثلاثة عناصر هي: سلوك غريزي، وسلوك حصيلة خبرته، وسلوك تعلمه من أفراد آخرين، وأن السلوك الإنساني مدين معظمه إلى ثالث هذه العناصر -الذي تعلمه من أفراد آخرين-، وأن خط الاتجاه الرئيسي في نقل أنماط السلوك بين الأفراد، هو ذلك الخط المتميز من الوالدين إلى الأولاد.

إذ إن أفراد كل جيل يكتسبون عادات والديهم وينقلونها إلى صغارهم، ويدخلون عليها تعديلات تبعا لما يتسع من خبراتهم الخاصة فتركيب جسم الفرد وسلوكه الغريزي يورثان بيولوجيا، في حين أن معظم سلوكه المكتسب يورث اجتماعيا، ويسمى هذا الإرث الاجتماعي ثقافة، وهو ليس موجودا عند الحيوان (7).

يرى لنتون أن عملية التنشئة الاجتماعية تتكون أساسا من لعب دور، ودمج ذلك الدور مع أدوار أخرى تمثل أنساقا ثقافية، ليصل إلى تعريف للشخصية على أنها مجموعة من الأدوار، ويعد مفهوم الشخصية عنده بمثابة بناء تصوري يعني ضمنا نمودجا للسلوك السائد في ثقافة ما.

وأخيرا فإن نظرية التعلم الاجتماعية عند لنتون تترك إمكانية الظهور لإسهامات جديدة ولتحولات في المجتمع، تدمج التغير والليونة القصوى للشخص الذي يستطيع أن يتوافق تدريجيا مع نماذج السلوك المتعارضة في الظاهر. إن تفكير لنتون الذي انصب على المعايير والنماذج الثقافية للشخصية قاده لفحص الهامشية والشذوذ والهيستيريا، لذا يعتبر الرائد في وضع الخطوط الأولى لمفهوم الشخصية القانونية (8).

2- مقارنة مالك بن نبي للثقافة: جدلية الأشياء..الأشخاص.الأفكار: يرى مالك بن نبي أن الوجود الحضاري للإنسان يتحدد بثلاثة أبعاد هي جغرافيته وتاريخه وثقافته، هذه الأخيرة تلعب دور الرابط بينها، والنهوض الحضاري للأمم يحتاج إلى هذه التوليفة مترابطة ومتناغمة.

في معالجته لموضوع الثقافة ينطلق ابن نبي من اعتقاد أن الإنسان إذ يعتزل وحيدا ينتابه شعورٌ بالفراغ الكوني وطريقته في ملء هذا الفراغ هي التي تحدد طراز ثقافته وحضارته، أي سائر الخصائص الداخلية والخارجية لوظيفته التاريخية، يضيف أيضا أن هناك طريقتين لملء هذا الفراغ، فإما أن ينظر المرء حول قدميه، أي نحو

الأرض، وإما أن يرفع بصره نحو السماء، فالطريقة الأولى تملأ وحدته بالأشياء، حيث يجمع بصره المتسلط لامتلاكها، والطريقة الثانية تملأ وحدته بالأفكار، ويبحث عن الحقيقة بنظره المتسائل كيف؟ ولماذا؟ هكذا ينشأ عبر الطريقتين نموذجان من الثقافة، ثقافة سيطرة ذات جذور مادية تقنية وهي مرتبطة بعالم الأشياء، وثقافة حضارة ذات جذور أخلاقية وغيبية وهي مرتبطة بعالم الأفكار⁽⁹⁾، إنها التجربة الأزلية كما سماها ابن نبي في التكيف مع البيئة.

وحسبه أن للعالم الثقافي بنية دينامية، تتوافق مظاهرها المتتالية مع علاقات متغيرة بين العناصر الثلاثة الحركية: الأشياء، والأشخاص، والأفكار، فهو عالم ليس ساكنا.

فهذه المقاييس الثابتة- الأشياء، الأشخاص، الأفكار- تتداخل في نشاط المجتمع عبر جدلية تاريخية تتوافق في كل لحظة فيها علاقة معينة بين الأشياء والأشخاص والأفكار في تركيب العمل، وتكون هذه اللحظات من اللحظات العادية في تلك الجدلية.

إلا أن هناك لحظات تحدد علاقة أكثر خصوصية، يزيد فيها أحد المقاييس على المقاييس الأخرى، وذلك عندما يكون النشاط مركزا على الأشياء أو على الأشخاص أو على الأفكار بصورة أكثر خصوصية.

هنا يكون ثمة إخلال بالتوازن يميز هذه اللحظة الخاصة من التطور التاريخي لمجتمع ما، إنها مرحلة غير طبيعية في جدلية عالمه الثقافي⁽¹⁰⁾، إنها لحظات الأزمة في مجتمع ما، أما اللحظات الأخرى فهي فواصل زمنية تتحدد بالاتجاهات التي تتوافق مع عمر المجتمع ومرحلة حضارته، والفواصل الزمنية هو صراع بين العناصر الثلاثة في قلب العالم الثقافي، أما الأزمة فهي نهاية هذا الصراع عند انتصار واحد من المقاييس.

يرى مالك بن نبي أن بناء الإنسان لعالمه الثقافي، واندماجه فيه سيرورة منطقية تسير باطراد، فمن اكتشافه لعالم الأشياء والسعي لامتلاكها، ثم تفاعله مع عالم الأشخاص بمقدار ما تربطه بهم من علاقات عاطفية، ثم اجتماعية وصولا إلى دخوله عالم الأفكار الذي يبدأ من لحظة تكوين روابط شخصية مع مفاهيم تجريدية، هذه الخطوة الأخيرة هي حاسمة في اطراد اندماجه الاجتماعي، لأنها تؤصله في محيط ثقافي أصيل، له من الخصائص ما يفصل بينه وبين المجتمعات المحايدة أو الخاملة، وهذا التغيير في المستوى النفسي يكشف له عن آفاق جديدة وأبعاد لا تخطر له ببال⁽¹¹⁾.

فالمشكلة في النهاية بالنسبة لمالك بن نبي هي مشكلة أفكار يقول في هذا الصدد لا يقاس غنى المجتمع بكمية ما يملك من - الأشياء- بل بمقدار ما فيه من أفكار.

فقد يحدث أن تلم بالمجتمع ظروف أليمة، كأن يحدث فيضان أو تقع حرب، فتتمحو منها عالم الأشياء محوا كاملا، أو تفقده إلى حين ميزة السيطرة عليه، فإذا حدث في الوقت ذاته أن فقد المجتمع السيطرة على -عالم الأفكار- كان الخراب ماحقا، أما إذا استطاع أن ينقذ أفكاره، فإنه يكون قد أنقذ كل شيء، إذ إنه يستطيع أن يعيد بناء عالم الأشياء.

فالحضارة عنده ما هي إلا نتاج فكرة جوهرية، تطبع على مجتمع في مرحلة ما قبل التحضر الدفعة التي تدخل به التاريخ، ويبني هذا المجتمع نظامه الفكري طبقا للنموذج الأصلي لحضارته، إنه يتجذر في محيط ثقافي أصلي يحدد سائر خصائصه التي تميزه عن الثقافات والحضارات الأخرى⁽¹²⁾.

إن فاعلية الأفكار وأصلاتها - حسب ما ذهب إليه ابن نبي - ترتبط بشبكة العلاقات، أي أنه لا يمكن أن يتصور عملاً متجانساً من الأشخاص والأفكار والأشياء دون هذه العلاقات الضرورية وكلما كانت شبكة العلاقات أوثق كان العمل فعالاً ومؤثراً.

فإرادة الفرد تتبع دائماً من الإطار العام للمجتمع الذي هو جزء منه، فكلما كان المجتمع متماسكاً وللا أفكار فيه دور وظيفي انتظمت إرادة الفرد، وتنافست الجهود في مسيرتها المتناغمة، وهكذا فإن المجتمع وقدرته تصفيان صفة الموضوعية على وظيفة الحضارة.

وتأسيساً على ما سبق فإن الحضارة عند ابن نبي هي: "جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية اللازمة لتطوره، فالفرد يحقق ذاته بفضل إرادة وقدرة ليستا نابتين منه، بل ولا يستطيعان ذلك، وإنما تتبعان من المجتمع الذي هو جزء منه" (13).

إن عالم الأفكار أسطوانة يحملها الفرد في نفسه عند ولادته، وتختلف هذه الأسطوانة من مجتمع إلى آخر، فأغماها الأساسية ونماذجها المثالية هي بمثابة أفكار مطبوعة، أما توافقاتها الخاصة بالأفراد والأجيال فتتمثل الأفكار الموضوعية، فإن فاعلية الأفكار رهن شروط نفسية واجتماعية، تتنوع بتنوع الزمان والمكان، ومرتبطة بالنشاط الاجتماعي والثقافي لتلك الأفكار. فهو يقول: "إننا إذا ما عرفنا تاريخ مجتمع معين، فسند أن كما لديه مقبرة يستودعها موتاه، فإن لديه مقبرة يستودعها أفكاره الميتة التي لم يعد لها دور اجتماعي" (14).

فالفكرة الميتة هي الفكرة التي بها خذلت الأصول، فكرة انحرفت عن مثليتها الأعلى ولذا ليس لها جذور في العصارى الثقافية الأصلية، وهي فكرة فقدت هويتها وقيمتها الثقافية بعدما فقدت جذورها التي بقيت في مكانها في عالمها الثقافي الأصلي.

في هذه وفي تلك خيانة أفكار، تجعلها سلبية أو ضارة، وهي بمثابة لا فاعلية ثقافية تعمل على زيادة خيانة الأفكار المندمجة في السلوك، واستبعاد الأفكار المتداولة عن الأفكار الأساسية، وفكرة تحمل هذه الصفة هي دائماً فكرة خانت نماذجها المثالية، ويرتد الأمر على المجتمع الذي يتحمل نتائج كل انحراف يمس عالمه الثقافي. ويبرز في هذه الحالة ما أطلق عليه ابن نبي الأفكار الميتة التي نتجت عن انتقام الأفكار المخدولة، مما يتسبب في ظهور الأمراض الاجتماعية والانحرافات السلوكية والشاذة (15).

بناءً على هذا التصور فإن الثقافة عند مالك بن نبي هي مجموعة من الصفات الخلقية، والقيم الاجتماعية، التي تؤثر في الفرد منذ ولادته، وتصبح لا شعورياً العلاقة التي تربط سلوكه بأسلوب الحياة في الوسط الذي ولد فيه، فهي بمثابة رأسمال أولي يستفيد منه الفرد منذ ولادته، ويعمل على تنميته خلال مراحل حياته ليصبح أسلوباً خاصاً ومميزاً، يشترك فيه مع باقي أفراد مجتمعه، وكذا هي التعبير الحسي عن علاقة الفرد بعالمه، وهي حياة المجتمع التي بدونها يصبح مجتمعا ميتاً.

يعتقد ابن نبي أن للثقافة وظيفة حضارية، وذلك حين تحدد في إطارها التاريخي، ثم التربوي فيقول: "لا يمكن أن نتصور تاريخاً بلا ثقافة، فالشعب الذي يفقد ثقافته يفقد حتماً تاريخه، فهي محيط يحيط به وإطار يتحرك داخله، فهو يغذي جنين الحضارة في أحشائه، إنها الوسط الذي تتكون فيه جميع خصائص المجتمع المتحضر، وهي الوسط الذي تتشكل فيه كل جزئية من جزئياته، تبعاً للغاية العليا التي رسمها المجتمع لنفسه.

فالأخلاق حسب تصور ابن نبي هي التي تعمل على جعل الفرد مرتبطاً بأسلوب حياة مجتمعه، فلا تحدث فيه نشوزاً بسلوكه الخاص، كما أنها تقوم ببناء عالم الأشخاص الذي لا يتصور بدونه وجود عالم الأشياء وعالم

المفاهيم (الأفكار)، فالرجل المثقف - حسب - مدفوع بالمبدأ الأخلاقي الذي يكون أساسا ثقافته استنادا إلى عمليتين، الأولى هي مجرد العلم بالمشكلة كفكرة، والثانية هي عملية تنفيذ وعمل، فالأخلاق هي التركيب التربوي. كما أن العالم الثقافي للفرد يحتاج إلى صلات اجتماعية، لا يحددها المبدأ الأخلاقي فقط بل إن الذوق الفطري يجعلها في صورة معينة تتدخل فيها الاعتبارات الشكلية، فالذوق الجمالي يضيف على عالم الأشياء الصورة التي تتفق مع الذوق العام ألوانا وأشكالا. فهو يرى أن التفاصيل البسيطة تصنع فرقا في عالم الإنسان الثقافي.

يوصل ابن نبي عرض أهم مبادئ تشكل الثقافة، والذي أسماه المنطق العملي، حيث يبرز من خلال مشاهدته اليومية، فكل نوع من النشاط يقوم على أساس الحركة، والتاريخ نفسه ليس إلا قائمة إحصائية لعدد معين من الحركات والأفكار، وبالتالي المجتمع الذي يسجل يوميا أكبر عدد ممكن من الحركات والأفكار، يكون لنفسه محصولا اجتماعيا أكبر.

وفي الأخير يقول ابن نبي إننا لا نتصور حياة الإنسان دون جانبها المادي، كما لا نتصور شيئا لا يصدر عن فكرة معينة تتصل بطبيعتها بعالم المفاهيم، فالمبدأ الأخلاقي، وذوق الجمال، والمنطق العملي، لا تكون وحدها شيئا من الأشياء، إن لم تكن في أيدينا وسائل معينة لتكوينه، وبالتالي يعطينا إياها العلم أو الصناعة.

3- وظيفتا الثقافة: للثقافة وظيفتان، وظيفة اجتماعية ووظيفة نفسية.

3-1- الوظيفة الاجتماعية: إن الوظيفة الاجتماعية الأساسية للثقافة هي أن تجمع أعدادا من الناس في بوتقة جماعة خاصة مميزة، وتبدو الثقافة وكأنها عبارة عن عالم عقلي أخلاقي رمزي مشترك بين أعداد من الناس.

3-2- الوظيفة النفسية: تؤدي الثقافة على الصعيد النفسي وظيفة قولبة الشخصيات الفردية، فالإنسان منذ ولادته في إطار ثقافة خاصة معينة، يتجه إلى نوع معين من السلوك في مأكله، ومشربه، وملبسه، وطريقة تفكيره ووجهة نظره، وميوله، ومعتقداته. وأن الطفل لو قدر له أن يعيش في وسط ثقافي مغاير سيكون له سلوك مغاير.

إذا كانت الثقافة تقوّل الشخصيّة، فعلياً أن نتذكر بأن هذا القالب مرّن، وتتأثر شخصية كل فرد بمدى توافق خاصيته أو طبعه بهذه الثقافة، ومرونة هذا القالب ليست مطلقة، بل تصل إلى خط أحمر إذا تجاوزها الفرد أصبح خارج مجتمعه.

ومن هنا يبدو لنا أن للثقافة وظيفة مزدوجة في حياة الفرد: محافظة وتجديدية، فالثقافة تكون محافظة لأن أبناء المجتمع يشربونها منذ الولادة وتحيا الثقافة فيهم، وتنتقل من جيل إلى جيل، وهذا ما ذهب إليه مالك بن نبي، وتكون متجددة لأن حياة الفرد في تجدد مستمر، ولا بد أن تستجيب الثقافة بتجديد عناصرها، وهذا ما أقره رالف لنتون.

ثانياً- التصورات الاجتماعية

1- التصورات الاجتماعية كمفهوم تأسيسي في ميدان العلوم الاجتماعية: اكتسح التصور كمفهوم إجرائي عديد الميادين البحثية، فأصبحنا نتحدث عن التصور المعرفي والتصور الاقتصادي، والتصور السياسي، والتصور الاجتماعي. هذا الأخير لعبت النظرية الدوركايمية دورا بارزا في ظهوره وتطوره.

لقد سعى دوركايم Durkheim إلى تأسيس حقل مستقل للعلوم الاجتماعية من خلال مفهومين ارتكازيين: مفهوم الشيء لمعاينة الظاهرة، ومفهوم التفكير الجمعي، كمنبع للظواهر للوصول إلى الموضوعية. ويقصد بالتفكير الجمعي مجموع المعتقدات العامة لدى أفراد المجتمع الواحد، إنه الرباط الذي يربط بين جيل وآخر، إنه ليس شيئا خاصا بكل فرد على حدة، ولكنه عام بين أفراد المجتمع.

إنه مجموعة من المشاعر السائدة في مجتمع معين، بحيث يشكل ذلك المجتمع وحدة حقيقية غير ناتجة عن اجتماع الأفراد اجتماعيا عدديا، بل عن تآلفهم واندماجهم، بحيث ينتج عن ذلك قوة ذاتية، وتكون ظاهرة في طرائق السلوك والتفكير والقوانين، وهو بمثابة الموجه القيمي العام في المجتمع، في هذا الصدد يقول دوركايم: "إن المجتمع يشكل واقعا قائما بذاته من نوع خاص له خصوصيات لا نجدها بنفس الشكل لدى المجتمعات الأخرى، والتصورات التي تفسره وتعبّر عنه لها معنى مغاير للتصورات الفردية، والشيء المؤكد أن التصورات الأولى تضيف شيئا للتصورات الثانية"⁽¹⁶⁾. إن مساهمة دوركايم تاريخية في تطوير مفهوم التصور.

لقد اقترح **موسكوفيسي** مفهوم التصورات الاجتماعية مقابل التصورات الجماعية، لأن الأولى حسب اعتقاده دينامية ومتطورة، كما أنها منحصرة في بنى صغيرة فهي كثيرة من حيث العدد والتنوع ولهذا تتغير بشكل أسهل مقارنة بالثانية الواسعة والثابتة في الزمن.

إن التصورات الاجتماعية هي أسلوب لترجمة أفكارنا وواقعنا نتخذ من التصورات الرمزية كما سماها **بورديو** أساسا لها في شكل ثقافة أو ما أطلق عليه رأس المال الثقافي بكل قوانينه المحددة للتراكم والتبادل والممارسة. يرى **موسكوفيسي** أن التصورات الاجتماعية هي: "تلك المعرفة التلقائية أو المعرفة بالمعنى المشترك أو التفكير الطبيعي الذي يعكس التفكير العلمي ليشكل تجاربنا، التي هي نماذج من التفكير التي تلقيناها ونقلناها عن طريق المحاكاة والتربية والاتصال الاجتماعي"⁽¹⁷⁾.

فحسبه التصورات الاجتماعية هي الموجه الأساسي لسلوكياتنا وتصرفاتنا وهي التي تنظم واقعنا، وذلك بأبعادها الثلاثة: البعد النفسي، والبعد الاجتماعي، والبعد المعرفي، لذلك يكتسي الاتصال الجماعي الذي يظهر في مختلف النشاطات الحياتية اليومية أهمية بالغة في خلق وبناء التصورات الاجتماعية، وهذا ما أكدّه **أبريك Abrik** حين قال: "إن التصور إنتاج سيروية النشاطات العقلية، يعيد بفضلها الفرد أو الجماعة إنتاج الواقع الذي يواجهه فيعطيه معنى خاصا"⁽¹⁸⁾.

كما اعتبرتها **جودليه Jodelet**: "مجموعة من الظواهر المعرفية، تعبر عن الانتماء الاجتماعي للأفراد من خلال استدراجهم لممارسات، وخبرات، ونماذج سلوكية، وفكرية"⁽¹⁹⁾.

2- حدود النفسي والاجتماعي في التصورات الاجتماعية: يستند البحث العلمي إلى أطر معرفية مختلفة، وكغيره من العلوم فإن علم النفس الاجتماعي يستند إلى إطار نظري متجاذب بين ما هو نفسي وما هو اجتماعي، وتندرج التصورات الاجتماعية بوصفها إحدى الاهتمامات الكبرى في هذا الميدان البحثي ضمن سلسلة من المفاهيم النفسية والمفاهيم الاجتماعية، فهي تتميز بصيغة ثنائية (نفسية/ اجتماعي).

يظهر البعد النفسي في التصورات الاجتماعية من خلال العمليات المعرفية- النفسية المتطورة، المرتبطة بعمليات المعالجة الحسية الإدراكية من جهة، والفكرية التجريدية من جهة أخرى، والتي تعمل على نشأة وتطور بنية التصور.

كما أن التعبير الفردي وإنتاج الخطاب يعتبر أول أثر مادي لتشكل التصور الاجتماعي، بمعنى أن اللغة من بين أهم العوامل المتدخلة في السيروية الدينامية النفسية للكشف عن التصور الاجتماعي. كما لا ننسى الإشارة إلى دور الذاكرة في حفظ واسترجاع المعلومات، والمعارف المرتبطة بموضوع التصور.

وتجدر الإشارة إلى أن حديث الفرد في موضوع تصور اجتماعي معين، يتزامن مع شعوره بوصف المحيط كما هو فعلا، وكما يدركه الآخرون وفق خبرتهم به. إن دراسة هذه الوظائف المعرفية النفسية هي من اختصاص علم النفس.

أما البعد الاجتماعي للتصور فيتحدد بالتفاعل الاجتماعي، الذي يبديه الفاعلون الاجتماعيون في إطار بناء اجتماعي، وما يتضمنه من نظم وأنساق، فتشكل بذلك تصوراتهم أنظمة تفسير لعلاقتهم مع الواقع ومع الآخرين، وتنظم وتوجه سلوكياتهم وتعاملاتهم، كما تبحث في قضايا تباين المراكز والمكانات والأدوار وكذا أنساق التنشئة الاجتماعية، وهذه المواضيع صلب الدراسات الاجتماعية.

علينا في الأخير التأكيد على أن التصورات الاجتماعية منظومة معرفية معقدة، تستند إلى نظريات تفسيرية تأخذ من علم النفس، وعلم الاجتماع، وقد استطاعت التصورات الاجتماعية كأسلوب علمي بحثي، بناء جسر منهجي نفسي/ اجتماعي، سمح بتحديد خريطة مفاهيمية لميدان العلوم الاجتماعية.

3- خصائص التصورات الاجتماعية: انطلاقا من تعاريف التصور الاجتماعي يمكن تلخيص أهم الخصائص فيما يلي:

3-1- الخاصية البنائية الإدراكية، الصورية: التصورات الاجتماعية ليست مجرد استرجاع صور حول الواقع، بل هي عملية إعادة صياغة لهذا الواقع، وبناءه من خلال عمليات عقلية، وبالرجوع إلى تاريخ الفرد ومعاشه، ومرجعياته القيمية، والثقافية، والاجتماعية، يرى موسكوفسكي أن الفرد يعمل على إعادة نمذجة عقلية للموضوع، عن طريق امتلاك الأفراد والجماعات له، وإعادة صياغتهم له عقليا، وإدماجهم له في نظام القيم المرتبط بتاريخهم، ومحيطهم الاجتماعي.

وهنا تبرز العمليات الإدراكية الفكرية، إذ بواسطتها يتم تحويل العمليات الإدراكية الحسية إلى عمليات فكرية ذات طابع تجريدي، فالفرد أثناء بنائه للتصورات الاجتماعية يستعمل مجموعة من الإشارات، والصور والرموز التي ينسبها لموضوع التصور بهدف تفسير وتأويل الموضوع المتصور، ويرمز له ويدل عليه، وبالتالي يعطي معنى معيناً يمكنه من التحكم فيه والتفاعل معه، ويسهل عملية الاتصال بإشراك كل أفراد الجماعة في نسبة هذا المعنى لذلك الموضوع، وهذا ما يطلق عليه بالرمزية الدلالية للتصور الاجتماعي، فقد شبه موسكوفسكي ذلك بوجهي الورقة فكل صورة دلالة خاصة بها ولكل دلالة صورة خاصة بها⁽²⁰⁾.

إن الخاصية الازدواجية الإدراكية الفكرية/ التصورية الرمزية هي التي أنتجت العلاقة صورة/ معنى للتصور الاجتماعي، فالدلالات تنتج صوراً وهذه الأخيرة بدورها تنتج دلالات.

تبنى التصورات الاجتماعية إذاً في إطار استدلالي اجتماعي بحيث تلعب الروابط الحقيقية الملموسة والتي تحدث أثناء التفاعلات دوراً في صياغة المضمون الاجتماعي.

يرى أبريك أن: "مدلول التصورات الاجتماعية يتداخل ويتشابك مع مدلولات عامة والصادرة من العلاقات الرمزية للحقل التصوري المعطى"⁽²¹⁾.

3-2- الخاصية الدينامية السوسيو- معرفية: إن التصورات الاجتماعية باعتبارها عملية إعادة بناء عقلية ذهنية للواقع مرتبطة بالميكانيزمات العقلية والنفسية للفرد الذي ينتجها، مما يجعلها ذات صبغة خاصة فريدة من نوعها، تحمل صبغة صاحبها، مما يضفي عليها صفة الإبداع والتفريد، ولكن الأفراد بديهيًا موجودون داخل محيط اجتماعي مشترك مع الآخرين. فهم ليسوا معزولين معرفياً، وثقافياً، مما يجعل تصوراتهم ذات طابع اجتماعي.

وبتعبير آخر لا يمكن دراسة التصورات الاجتماعية في نظامها المعرفي إلا بالرجوع إلى خصائصها الأساسية والتي ترتبط بسمتين متكاملتين، أولهما تاريخية التصورات الاجتماعية، أي أن هذه الأخيرة منتوج تاريخي يرتبط بالإرث الاجتماعي-الثقافي، والإسهام المعرفي في إطار دينامي يعمل على تحويلها. وثانيهما غيرية - الغير أو الآخر - التصورات، أي أن التصورات الاجتماعية لجماعة ما تختلف عن التصورات الاجتماعية لجماعة أخرى، بمعنى أن جماعة الانتماء تجد طبيعة التصور (22).

تلعب التصورات الاجتماعية دورا هاما في عملية التفاعل الاجتماعي لأنها تشكل جزءا من النظام المعرفي والتواصل للفراد، فهي تعمل على إقامة وإبقاء العلاقات الاجتماعية فهي تمثل حلقة وصل بين الفرد وبيئته. انطلاقا من هذه المعطيات يمكن اعتبار التصورات الاجتماعية إنتاجا عقليا-معرفيا فرديا حسب نموذج اجتماعي، وهي مجموعة من الآراء والاتجاهات والمعتقدات والمعلومات المرتبطة بموضوع معين أو صيغة معينة يحددها تاريخ الفرد ومعاشه والنظام أو النسق الاجتماعي والإيديولوجي، الذي ينتمي إليه من جهة، ونوعية الروابط التي يقيمها الفرد داخل هذا النظام من جهة ثانية.

ويدعم هذا الطرح فرنسوا لابلونتين François Laplantine إذ يقول: "التصورات الاجتماعية هي التقاء الخبرة الفردية بالنماذج الاجتماعية حول طريقة تناول الواقع، إنها معرفة يبينها أفراد مجتمع معين حول جزئية من وجودهم، أو حول وجودهم برمتهم، إنها تفسير اجتماعي للأحداث بحيث يصبح بالنسبة للأفراد المنتمين لذلك المجتمع الحقيقة ذاتها (23).

فالتصورات الاجتماعية منتج فردي داخل إطار اجتماعي من جهة، ومنتج جماعي لشركاء اجتماعيين، فهي بذلك تقدم ملصح تعريف الجماعة الاجتماعية وتميزها عن غيرها، ومقارنتها بسواها من الجماعات الأخرى. خلاصة القول إن التصورات الاجتماعية تقع في الحد الفاصل بين مجالين هامين هما: المجال النفسي، والمجال الاجتماعي، وهي نتاج جدلية النفسي والاجتماعي كما ذهب إلى ذلك جودوليه حين أقرت بأن التصورات الاجتماعية لا تقع في المجال الاجتماعي، كما لا تقع تماما في المجال النفسي، ولكنها تقع في المواجهة ما بين النفسي والاجتماعي (24).

3-3- الخاصية التفاعلية الارتباطية: من أولى شروط وجود التصور الاجتماعي وجود موضوع متصور، يمكن أن يكون شخصا، شيئا، حادثة مادية أو نفسية، ظاهرة طبيعية، فكرة نظرية... كما قد يكون حقيقة أو خيالا مثل الأساطير، بمعنى آخر يمكن أن يكون الموضوع ذا طبيعة مادية أو معنوية يعبر عنه الأشخاص في وضعيات ومواقف حديثة للبرهنة والإقناع بعد التأويل والتفسير.

وعليه فإن التصور الاجتماعي يتأثر بخصائص كل من الموضوع المتصور والشخص المتصور، فهما في علاقة تفاعلية، حيث يلجأ الفرد إلى إعادة بناء الموضوع وفقا لخصائصه، أي أن الشخص أو الجماعة يضيفان عليها طابعا خاصا وفق الثقافة والإيديولوجية السائدة لتصبح حقيقة لا يمتلكانها إلا هما.

إن عملية بناء التصورات الاجتماعية كما -رأينا سابقا- لا تقتصر على إعادة إنتاج الواقع بل هي عملية إعادة تنظيم وترتيب عناصر هذا الواقع بطريقة مغايرة، وكأنها عملية بناء واقع جديد "متصور" أكثر تكيفا وملاءمة لمحيط الفرد والجماعة، حسب المرجعية والقيم والمعايير السائدة، بهدف توجيه سلوكات وتصرفات الفرد والجماعة وتسهيل التواصل فيما بينهم، فهي بهذا المعنى تكتسي - التصورات الاجتماعية- طابع الإبداع والتفرد والاستقلالية.

4- أهم مقاربات دراسة التصورات الاجتماعية:

4-1- المقاربة السوسيوثقافية لموسكوفيسي: ليست التصورات مجرد إعادة بناء للواقع من خلال معاني بسيطة، بل هي عملية عقلية، اجتماعية معقدة، يعمل الفرد من خلالها على إيجاد نموذج اجتماعي وفق قيم ومعايير المجتمع.

يعد النموذج السوسيوثقافي أول مقاربة نظرية اقترحها موسكوفيسي للعمل على التصورات الاجتماعية، حيث تركز على الكيفيات التي ينتج من خلالها الأفراد تصوراتهم حول مختلف المواضيع.

يرى موسكوفيسي أن ظهور وضعية اجتماعية جديدة وما ي صاحبها من قلة معلومات، أو عجز المعارف المكتسبة عن تأويلها يؤدي إلى بروزها كموضوع استشكالي وجديد يستحيل معرفته بشكل كامل نظرا لتشتت المعلومات التي تتعلق به، فهذه الوضعية تتطلب نقاشات وتفاعلات لفهم الموضوع، ويتم تنشيط التواصل الجماعي، والتطرق لكل المعلومات والمعطيات الممكنة ما يؤدي في النهاية إلى الخروج بموقف لدى أغلبية الجماعة، هذا التوافق أنتجته طبيعة معالجة الأفراد الانتقائية للمعلومات إذ يتمركزون حول مظهر خاص يتناسب وتوقعاتهم وتوجهاتهم⁽²⁵⁾.

معنى هذا أنه لإنتاج تصورات اجتماعية يجب توفر حد أدنى من المعلومات يمثل الرصيد المعرفي حول موضوع التصور يراكمه الفرد عبر تاريخه وفقا لثقافته وانتماءاته، ثم يلجأ من جهة أخرى إلى ترتيب وتنظيم هذه المعلومات مشكلة وحدة، في هذا الصدد يقول موسكوفيسي: "هناك حقل تصوري أين توجد وحدة مركبة من العناصر"⁽²⁶⁾.

إن درجة تنظيم محتوى التصور الاجتماعي في حقل دلالي يدل على مستوى الانتقاء والاستدخال من قبل أفراد الجماعة فهو يختلف من جماعة إلى أخرى وكذا داخل الجماعة الواحدة، وذلك استجابة لمعايير عديدة، كما أن ردود الفعل اتجاه الموضوع تتباين وتختلف وتتحدد بالاستقطاب الإيجابي أو السلبي الذي تمارسه الجماعة للدفاع عن موقفها في مقابل الجماعات الأخرى التي لا تتوافق معها في الاتجاه حول موضوع التصور.

يسمح هذا التحليل ثلاثي الأبعاد بوصف محتوى التصورات الاجتماعية من جهة وتحديد طبيعة العلاقة بين الأبعاد وكذا الوقوف عند مستوى التباين بين مختلف الجماعات، مما يسهل عملية التصنيف.

4-2- المقاربة التنظيمية عند أبريك (نظرية النواة المركزية): التصورات الاجتماعية مجموعة من العناصر متعلقة بالموضوع المتصور، وهذه العناصر تتفاعل وترتبط فيما بينها بطريقة منتظمة ومتناسقة مما يسمح لها بالوحدة والاستقرار.

طور أبريك نموذجا نظريا يشرح من خلاله النسق التنظيمي للتصورات الاجتماعية، فحسب افتراضه أن: "التصورات الاجتماعية تنتظم حول نواة مركزية، هذه النواة هي العنصر الأساسي له فهي تعرفه وتحدده"⁽²⁷⁾ بمعنى آخر أن كل تصور عبارة عن جملة من العناصر لها علاقة فيما بينها، ولكن البعض من تلك العناصر يلعب دورا أساسيا فتكون بمثابة نواة التصور المركزي، فتسيره وتنظمه وتعمل على استقراره وإعطائه دلالة بينما يبقى البعض الآخر سطحياً يشير إلى خصائص أو صفات ثانوية للتصور.

وعليه فإن المقاربة التنظيمية لأبريك تقر بوجود نظامين هامين في بنية وعمل التصورات الاجتماعية هما: النظام المركزي، والنظام المحيطي.

4-2-1- النظام المركزي للتصورات الاجتماعية: هو بمثابة النواة الصلبة للتصور الاجتماعي، تتكون من العناصر التي إذا تغيرت تغير التصور، كما أنه يعطي معنى ودلالة للتصور والتي تكون مشبعة بالنظام القيمي للجماعة، حسب أبريك دائما فإن النواة المركزية هي العنصر الأساسي في التصور، ذلك أنها هي التي تحدد في الوقت نفسه المعنى والتنظيم الخاصين بالتصور.

فالنظام المركزي للتصور الاجتماعي يمثل العناصر الأكثر مقاومة للتغير، وليست الأكثر تكرارا وترددا في خطاب الناس، وأي تحول في النواة المركزية يؤدي إلى تحول كلي في طبيعة التصور، وإن البعد الكمي لا يكون مؤشرا كافيا في تمركز عنصر ما للتصور، وعلى العكس من ذلك يبقى البعد الكيفي هو المحدد لتمرکز هذه العناصر⁽²⁸⁾.

4-2-2- النظام المحيطي للتصورات الاجتماعية: يعتبر النظام المحيطي مكملا للنظام المركزي، يضم مجموعة من العناصر حسب أبريك، إن العناصر المحيطية للتصور تنتظم حول النواة المركزية، ولها علاقة مباشرة معها، فهي تحدد توازنها، قيمتها، وظيفتها، والعناصر المحيطية هي الأهم في محتوى التصور، والجزء السهل البلوغ، كما أنها ملموسة وأكثر حيوية، فهي تتضمن المعلومات المسترجعة والمختارة والمترجمة، كما تحوي أحكاما مشككة من الموضوع.

إن هذه العناصر المحيطية متدرجة ومتسلسلة بمعنى أنها تستطيع أن تكون أكثر أو أقل قربا من النواة المركزية، فقربها يجعل معنى ومدلول التصور ملموسا، أما بعدها فيوضح معنى المدلول فهي تعمل بمثابة وسيط بين النواة المركزية والوضعية المادية ... وهي تستجيب لثلاث وظائف:

وظيفة دفاعية: النظام المحيطي نظام دفاعي عن التصور وذلك كما وصفه **Flament** بأنه دائرة للتصورات الاجتماعية فهو يقيه من كل الصدمات، يمتص ويصد كل ما يعجز وصفه أو يتعذر تبريره وكل جديد يطرأ عليه دون الإضرار بالنظام السوسيو- معرفي⁽²⁹⁾، وتضمن العناصر المحيطية إدماج مشروط للعناصر المتناقضة.

وظيفة التجسيد: العناصر المحيطية مرتبطة بالإطار الذي يوجد فيه الفرد، وهي ناتجة عن ترسيخ التصور، تسمح بإعطائه صيغة ملموسة، سهلة الفهم والنقل.

وظيفة التكيف: نظرا لما تمتاز به العناصر المحيطية من مرونة فإنها تعمل على حماية النظام المركزي من التغير، كما تعمل على تكييف عناصر جديدة من خلال إدماجها وفق دينامية مضبوطة. مع مراعاة خاصية التفرد لدى الأفراد فهي تسمح بإجراء تعديلات تتوافق مع تاريخ الفرد ووضعيته وهذا ما تملبه طبيعة الفروقات.

ثالثا- تقاطع العناصر البنائية للثقافة مع مفهوم التصورات الاجتماعية

1- الدين والتصورات الاجتماعية: يشكل الدين مساهمة هامة في ثقافة الشعب، فهو يعبر عن رؤية معينة للوجود والطبيعة والإنسان، ويقوم على تعاليم ترسم للمنتسبين إليه المسموح والممنوع، وترسخ في وعيهم مبادئ تحولت إلى قواعد صارمة للسلوك، وأفكار تحولت إلى عقائد ثابتة، لا تقبل المراجعة في جانبها اللاهوتي، حتى وإن كانت بميدان الممارسات في المجتمع المدني⁽³⁰⁾.

إنه ينطلق من فرضيات مسبقة هي فرضيات الإيمان، وعلى من يقبل بها أن يعمد إلى تبني سلسلة من الفرائض تقيّد مسلكه الاجتماعي.

ولعل أهم ما يمكن أن نركز عليه في هذا الإطار مصطلحي المقدس والمدنس؛ فالمقدس هو ما يربع ويرهب، والمدنس هو نجس يدخل في إطار المحرمات والمحظورات "الطابوهات" التي ترسم حدود المقدس.

إن فهم العلاقة بين التصورات الاجتماعية والدين، تتضح خاصة في فهم الوظائف الأساسية للدين، ودورها في تحديد سلوك الأفراد، وتوجيه تفكيرهم، وفهم مختلف الظواهر الاجتماعية والنفسية وإدراكها حتى لو كان هذا وفق اعتقادات غامضة ومبهمّة وعصية عن الفهم.

فالدين يقتضي نمطا من التفكير والسلوك يمتنع فهمه، أو تعديله بمعزل عن شبكة المعاني والدلالات الخاصة به، وهذا ما يضمنه نظام التصورات الاجتماعية.

2- الأعراف والتصورات الاجتماعية: الأعراف عبارة عن طائفة من الأفكار والآراء والمعتقدات، التي تنشأ في جو الجماعة، وتنعكس فيما يزاوله الأفراد من أعمال، وفي الكثير من مظاهر سلوكهم الجمعي، ويضطر الأفراد إلى الخضوع لهذه الأعراف لأنها تستمد قوتها من فكرة الجماعة وعقائدها أي من مقدساتها ومحرماتها والعرف، وما يتصل به من عقائد شعبية وأفكار العوام، يعتبر أهم جزء من دستور الأمة غير المكتوب⁽³¹⁾، ومن بين الأمثلة على ذلك في الجزائر: المجتمع القبائلي، المجتمع الشاوي، المجتمع المزابي، وقد ترتقي بعض أحكامه وقضاياه إلى درجة القواعد القانونية الملزمة.

تساهم التصورات الاجتماعية للأفراد والجماعة التي ينتمون إليها في تكوين أعرافهم، من خلال التأثير المستمر والدائم لهذه الأخيرة على سلوكياتهم وأحكامهم، لأن ما يساعد على تكوين العرف عاملان:

- العامل الأول مادي: يتمثل في وجود عادة قديمة غير مخالفة للنظام.

- العامل الثاني معنوي: يتمثل بضرورة احترامه لاعتقادهم، وأن هناك جزاء يقع عليهم إذا خالفوه⁽³²⁾.

3- القيم الاجتماعية والتصورات الاجتماعية: يعتبر مفهوم القيم من بين أكثر مفاهيم العلوم الاجتماعية اتساعا وتعقيدا، لارتباطه بعدد كبير من المفاهيم الأخرى، كالاتجاهات والمعتقدات والعادات والمعايير والنماذج...، فمنهم من اعتبر القيم مجموعة من التنظيمات النفسية لأحكام فكرية وانفعالية يشترك فيها أشخاص بحيث تعمل تلك التنظيمات في توجيه دوافع الأفراد، ورغباتهم في الحياة لخدمة أهداف محدودة تسعى لتحقيقها تلك الفئة.

فالقيم عنصر مشترك في تكوين كل من نظام الشخصية والبناء الاجتماعي، وهي بذلك تشكل ما يسمى بالبناء القيمي، الذي يعكس أهداف المجتمع، ويرى مالينو فيسكي أن القيمة هي ارتباط قوي وحتمي بين الإنسان وبعض الأهداف، والمعايير، والأشخاص المعنيين الذين يعدون وسيلة لإشباع حاجاته⁽³³⁾.

تمثل القيم الاجتماعية المراكز النشطة في الجهاز النفسي الاجتماعي لكل فرد، فهي تستقبل الأحداث المادية بصورها المختلفة، ثم تقوم بعملية إنتاج السلوك الذي يقود بدوره إلى تكوين شبكة العلاقات الاجتماعية، والقيمة الاجتماعية في أبسط حالاتها تنشأ وتتكون في مواقف المفاضلة والاختيار، فكلما زادت خبرة الإنسان بمثل تلك المواقف - مواقف المفاضلة - تكونت لديه القيم الاجتماعية، ونضجت واستقرت وكونت له جهازا يستطيع عن طريقه أن يحكم على الأشياء والأحداث، لذلك فإن القيم الاجتماعية تشكل أحد أهم ضوابط السلوك الاجتماعي، نظرا لمساهمتها في تحديد التفضيلات والاختيارات في المواقف الحياتية للأفراد والجماعات⁽³⁴⁾.

تلعب التصورات الاجتماعية دورا هاما في ضبط سلم القيم الاجتماعية وذلك عن طريق ما يستدخله أفراد المجتمع من عادات، وتقاليده، ومعايير، وأعراف...، مطالبين بتمثلها والتكيف معها أثناء تفاعلهم، فتصبح بذلك أداة مراقبة ومعاقبة

4- التقاليد والعادات والتصورات الاجتماعية: التقاليد عبارة عن مجموعة من قواعد السلوك التي تنشأ على الرضا والاتفاق الجمعي، وهي تستمد قوتها من المجتمع، وتحفظ بالحكم المتراكمة، وذكريات الماضي التي مر بها

المجتمع، يتناقلها الخلف عن السلف، جيل بعد جيل، والتقاليد هي أسلوب المجتمع في احتواء العادة النافعة والآثار والبقايا غير النافعة. وتختلف العادات عن التقاليد في كون العادات تتعلق بالسلوك الخاص وهي متغيرة باستمرار، أما التقاليد فهي تتعلق بسلوك المجتمع ككلية، وتغرز تماسكه، وتوجه الفرد إلى ممارسة المسموح، وتجنبيه ما يحرمه المجتمع⁽³⁵⁾.

تكتسب العادات والتقاليد إما بالطرق الشفوية (كالحكايات الشعبية)، أو تكون مكتوبة (الأدب والشعر) أو بالتجربة والممارسة (الطقوس الدينية والرقصات الشعبية)، وهي شكل من أشكال الرواسب الثقافية في المجتمع. تختلف التقاليد والعادات من مجتمع إلى آخر، لذا فإن تصورات الأفراد الاجتماعية تلعب دورا بارزا في صناعتها وصياغتها وفق ما تقتضيه الخصوصية الاجتماعية لكل مجتمع فمثلا يمكن ملاحظة نفس التقاليد في ممارسة الشعائر الدينية، ولكن العادات حول نفس التقاليد تختلف من فرد إلى آخر.

ترتبط العادات والتقاليد ارتباطا وثيقا بالموروث الثقافي الشعبي، لأنها تستمد قوتها وغناها من أدبه الشفوي والمكتوب في شكل أحكام وأمثال، وكذا من معتقداته وخرافاته وأساطيره، كالاعتقاد بالطب الشعبي والعلاج به، والإيمان بالسحر والتعزيم، والاعتقاد بالتشاؤم والنحس...، وكذا الاعتقاد ببعض العادات والتقاليد المرتبطة بالولادة، والختان، والخطبة، والزفاف، والنفاس، والموت... .

5- المعتقدات ورمزية الطقوس والتصورات الاجتماعية: إن الإنسان سعيًا منه لفهم عالمه والتكيف مع بيئته يستند إلى مجموعة من التصورات (عقلية، اجتماعية)، تلعب المعتقدات دورا حاسما في إنتاجها، حتى أنه بات هناك خلط كبير بين مفهوم التصور ومفهوم المعتقد.

فالاعتقاد هو مجموعة من الأفكار الكلية الخاصة بالعالم الطبيعي، والاجتماعي، والإنساني، يحلل نسق المعتقدات بالاعتماد على العديد من الجوانب، أو الأنساق الفرعية. مثل الاتجاهات والأديان والإيديولوجيات⁽³⁶⁾.

أما التصور الاجتماعي فهو العملية التي بواسطتها يتم تفعيل هذه المعتقدات وتجسيدها في الواقع في شكل أفعال وممارسات تحت مسمى الشعائر والطقوس، لأن ما يميز المعتقدات الملزمة عادة هو أنها ذات طبيعة دينية مقدسة لها أصول في النصوص الدينية، وهي تكتسي سلطة قهرية تؤثر على الأفراد من غير أن يتدخل العقل في الأمر، ووظيفتها أن تنقل أحاسيس تتصل بحقائق كبيرة⁽³⁷⁾.

ينظم ضمن جانب من المعتقدات مجموعة من المحرمات المقدسة المعروفة باسم "التابو" وهي ذات وظيفة رمزية باعتبارها أداة تنظيمية للوحدة الجماعية⁽³⁸⁾.

فالرموز ترتبط بشبكة من المعاني ولا يمكن فك تشفيرها، إلا بالرجوع إلى هذه الشبكة، ولا يمكن فهم مدلولاتها، إلا بتجزئة عناصرها في إطار منظومة واعية من التصورات الاجتماعية. فالرموز أساليب متطورة تدل على كفاءة الفرد وقدرته على حفظ خبراته وتجاريه، والتصورات الاجتماعية هي المنتج والسيروية في آن واحد للعملية العقلية التي يعيد من خلالها الفرد أو الجماعة بناء الواقع الذي يواجهه وينسب له دلالات ومعاني وهذا ما أشارت إليه

M. SECA

رابعا- الثقافة.. التصورات الاجتماعية.. المجتمع

الثقافة والمجتمع مفهومان متلازمان يصعب وضع خط فاصل بينهما، ففكرة "دوركايم" عن التصورات الجماعية أو العقل الجمعي في موضوعات الثقافة تعتبر أساسية في الحياة الجمعية وكثيرا ما استخدم "دوركايم" كلمة

مجتمع حين نستخدم اليوم مصطلح الثقافة، وعند ما يريد التمييز بينهما كان يستخدم مصطلحين متميزين هما الوعي الجمعي والتصورات الاجتماعية الجمعية⁽³⁹⁾.

يقول في هذا السياق إن كل مجتمع يشكل واقعا قائما بذاته من نوع خاص له خصوصيات لا نجدها بنفس الشكل لدى المجتمعات الأخرى، والتصورات التي تعبر عنه لها معنى مغاير للتصورات الفردية والشيء المؤكد هو أن التصورات الأولى تضيف شيئا للتصورات الثانية⁽⁴⁰⁾.

كما أن رالف لنتون ساهم في حل مشكلة العلاقة بين المجتمع والثقافة من خلال ما يعرف بالمكانة والدور، فأوضح أن الفرد لا يستطيع أن ينمي معرفته الثقافية من خلال جماعته الأولية فقط، وإنما من خلال الاتصال بعدد من المجتمعات التي تمنحه عضوية جديدة داخل ثقافتها، لأن الثقافة تكون مسؤولة عن الجزء الأكبر من محتوى أي شخصية، وأن عملية تكوين الشخصية - كما يراها لنتون - هي عملية يجري فيها اندماج خبرات الفرد مع صفاته التكوينية لتشكيل معا وحدة وظيفية متكاملة، تكيفت أجزاؤها بعضها مع بعض تكيفا متبادلا⁽⁴¹⁾.

ولعبت التصورات الاجتماعية بما تضمنته من أنظمة تفسيرية وآليات تنظيمية دورا مميزا في فهم الواقع وترتيبه والتواصل من خلاله في الحياة اليومية. ذلك لأنها- التصورات الاجتماعية - معرفة منظمة منتجة من طرف الفرد بالتفاعل مع الجماعة حول موضوع معين.

أما إسهام ابن نبي بجديته التاريخية - عالم الأشياء، الأشخاص، الأفكار - في هذا المجال فقد كان رائدا، فهو يرى أن فاعلية الأفكار تخضع لشبكة العلاقات الاجتماعية أي أنه لا يمكن أن يتصور عملا متجانسا من الأشخاص والأفكار والأشياء دون هذه العلاقات الضرورية، فكلما كانت شبكة العلاقات أوثق، كان العمل فعالا ومؤثرا.

ويضيف أن شبكة العلاقات هي العمل التاريخي الأول الذي يقوم به المجتمع ساعة ميلاده⁽⁴²⁾.

يقر ابن نبي أن كل علاقة اجتماعية هي في جوهرها قيمة ثقافية يمثلها القانون الخلقي، والدستور الجمالي الخاص بالمجتمع.

ويعتقد أيضا أن الطبيعة توجد النوع، ولكن التاريخ يصنع المجتمع، وهدف الطبيعة هو مجرد المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية وهو ما أطلق عليه اسم الحضارة⁽⁴³⁾.

فالثقافة عنده ليست سوى تعلم الحضارة، والفرد يحمل في نفسه لدى مجيئه إلى الدنيا ملخصا لهذه التجارب أي تاريخه، فهو يستقبل عند ولادته ميراثا نفسيا معيناً، كما يستقبل تراثا حيويًا، هذا الميراث هو الذي يكون مجال اللاشعور، ويمثل رصيد العقائد، والخرافات التي كدستها الإنسانية في نفسيتها منذ بدء التاريخ⁽⁴⁴⁾، وعلى هذا الأساس يتكون نظام الفرد التصوري العقلي منه والاجتماعي.

خاتمة

إن الاهتمام بالتصورات الاجتماعية كنموذج معرفي-اجتماعي، فردي وجماعي والذي هو حصيلة إرث ثقافي اجتماعي بالتفاعل مع المعارف الجديدة يفرض نفسه في كل وضعية اجتماعية، كما أن تبلور هذه التصورات يستجيب لمطالب نفسية وحاجات اجتماعية للتحكم إلى حد ما في فهم الواقع وتأويله في سياقه الثقافي بكل عناصره (الدين، العرف، المعتقدات، العادات والتقاليد...)، بهدف تحديد علاقة الفرد بذاته وبالآخرين ومن ثم

بمحيطه الاجتماعي والثقافي. ألم تتأسس العلوم الاجتماعية على اعتقاد أن الفرد كائن داخل نظام اجتماعي/ثقافي يؤثر ويتأثر؟

الهوامش:

1- دوني كوش، مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية- ترجمة قاسم المقداد، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق- سوريا، 2002، ص 22- 23.

2- محمد سبيلا، وآخرون، الطبيعة والثقافة، دار توقال للنشر، ط 4، الدار البيضاء - المغرب، 2013، ص 16-17.
3- Linton Ralph, Le fondement culturel et la personnalité, Edition Dunod, Paris, 1977, P 59-63.

4- Ibid, p 68- 71.

5- Ibid, p 92-93.

6- Ibid, p 125.

7- لنتون رالف، دراسة الإنسان- ترجمة عبد المالك الناشف، المكتبة العصرية، بيروت- لبنان، 1964، ص 105-110.

8- فالادون سيمون كلايه، نظريات الشخصية- ترجمة علي المصري، المؤسسة الجامعية والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان، 1993، ص 17.

9- مالك بن نبي، مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الوعي، الجزائر، 2013، ص 17.

10- المرجع السابق، ص 75-76.

11- المرجع السابق، ص 31.

12- المرجع السابق، ص 41.

13- المرجع السابق، ص 42.

14- المرجع السابق، ص 46.

15- المرجع السابق، ص 185.

16- Durkheim Emile, Les formes élémentaires de la vie religieuse, Edition PUF, Paris-France, 1991, p 23.

17- Moscovici Serge, Introduction à la psychologie sociale, Edition PUF, Paris-France, 1972, P 360.

18- Abric Jean Claude, Pratiques Sociales et Représentations Sociales, Edition Erès, Paris-France, 1994, p 13.

19- Jodelet Denise, Les Représentations Sociales, Edition PUF, Paris-France, 4^{ème} édition, 1991, P 51.

20- Moscovici Serge, Op-Cit, p 55.

21- Abric Jean Claude, Méthode d'études des représentations sociales, Edition Erès, Paris-France, 2003, P 15.

22- Rouquette Michel louis et Rateau Patrick, Introduction à L'étude des représentations sociales, Edition PUF, Paris-France, 1998, p 33.

23- Laplatine François, Anthropologie des systèmes des représentations de la maladie, Edition PUF, Paris-France, 1994, p 278.

24- Jodelet Denise, Op-Cit, p 40.

25- Blanc N et Autre, Le concept de représentation en psychologie, In press, Paris-France, 2006, P 19-20.

26- Moscovici Serge, Op-Cit, p 68.

27- Abric Jean Claude, Pratiques Sociales Et représentations, Op-Cit, P 19.

28- Ibid, p 22.

29- Seca Jean Marie, Les représentations sociales, Edition Amron Colin, Paris-France, 2002, P 75.

- 30- عبد الله بلفريز، في البدء كانت ثقافة، المطبعة الحديثة، الدار البيضاء- المغرب، 1998، ص 53.
- 31- حسين عبد الحميد أحمد رشوان، الثقافة (دراسة في علم الاجتماع الثقافي)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية- مصر، 2006، 157.
- 32- أبو خليل فاديا، الثقافة والتنشئة الاجتماعية وأثرهما في تكوين شخصية الفرد، دار النهضة العربية، بيروت-لبنان، 2014، ص 169.
- 33- إحسان محمد الحسن، موسوعة علم الاجتماع، الدار العربية للموسوعات، بيروت-لبنان، 1999، ص 51.
- 34- ذياب فوزية، القيم والعادات الاجتماعية، دار النهضة العربية، ط2، بيروت-لبنان، 1980، ص 51.
- 35- حسين عبد الحميد أحمد رشوان، المرجع السابق، ص 159.
- 36- المرجع السابق، ص 137.
- 37- غيث محمد عاطف، قاموس علم الاجتماع، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1978، ص 42.
- 38- أبو خليل فاديا، المرجع السابق، ص 170.
- 39- حسين عبد الحميد أحمد رشوان، المرجع السابق، ص 149.
- 40- Durkheim Emile, Op-Cit, p 23.
- 41- حسين عبد الحميد أحمد رشوان، المرجع السابق، ص 143.
- 42- مالك بن نبي، ميلاد مجتمع، دار الفكر، ط10، دمشق-سوريا، 2015، ص 48.
- 43- المرجع السابق، ص 19.
- 44- المرجع السابق، ص 68.